المجلة التاريخية الجزائرية | المجلد3،العدد01،جوان 2019.العدد التسلسلي:11.ص142–151
Volume 03, N 01, June 2019 . S/ N 11.p142-151 | Issn:2572-0023

أزمة التغذية وتغذية الأزمة في الجزائر سنتي 1867–1868
في ضوء بعض الوثائق والمصادر المحلية
Crise alimentaire et alimentation de la crise en Algérie entre: 1867 et 1868 à la lumière de certains documents et sources locaux

د/ فارس كعوان* Dr. kaouane Fares
جامعة سطيف 02 – University Sétif 02
fares_kaouane@yahoo.fr

معلومات المقال/History of the article		
الإرسال/Received	المراجعة/Accepted	القبول للنشر/Published
2019/01/11	2019/02/19	2019/06/30

الملخص:

شكّلت الأزمة الغذائية في أعوام الستينات من القرن التاسع عشر منعرجا حاسما في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للجزائر، ونقطة الذروة في تنامي حالة البؤس لدى الفلاح الجزائري، إذ أنها أظهرت بجلاء مدى فشل السياسة الزراعية الكولونيالية، وعدم تجاوب الأهالي مع الإجراءات الجديدة التي خدمت فئة محدودة ارتبطت مصالحها مع الإدارة الاستعمارية. وقد عمل الأهالي على مواجهة هذه الأزمة بإتباع أنماط غذائية جديدة لم تكن في غالبيتها صحية، مما أدى لتفاقم وضعيتهم أكثر، وسنحاول في هذه المداخلة توضيح انعكاسات الأزمة الغذائية في اعوام الستينات من القرن التاسع عشر على الأهالي الجزائريين. وسنحاول في هذا المقال ومن خلال الرجوع لبعض الوثائق المحلية والمصادر دراسة تداعيات الأزمة الغذائية على الجزائريين، ويقدم لنا مخطوط محلي نادر رؤية جديدة عن واقع الأزمة أواخر الستينات في منطقة شمال سطيف في مقاطعة قسنطينة.

الكلمات المفتاحية: أزمة التغذية، الجزائر، الوثائق، المصادر المحلية.

* المؤلف المرسل: د/ فارس كعوان، الإيميل:fares_kaouane@yahoo.fr

Summary:

The food crisis of the 1860s was a decisive turning point in Algeria's social and economic history, and the culmination of the growing misery of the Algerian peasant. With colonial administration. The people worked to confront this crisis by adopting new food patterns, which were mostly unhealthy, which exacerbated their situation further, and we will try in this intervention to explain the repercussions of the food crisis in the sixties of the nineteenth century on the Algerian people. In this article, we will try to refer to some local documents and sources to study the repercussions of the food crisis on the Algerians, and provides a rare local manuscript provides a new vision of the reality of the crisis in the late sixties in the region of North Setif in the province of Constantine.

key words:crisis, Algeria, documents, Local sources.

1- تجليات أزمة التغذية

عرفت الجزائر سنوات الستينات تدهورا معيشيا كبيرا نتيجة قانون السناتوس كونسولت، واستيلاء المستوطنين على أراضي الأهالي، وإجبارهم على العمل خماسة أو النزوح القسري منها، وزاد من حدة الوضع الجفاف الذي ضرب البلاد، وألقى بثقله على الوضع البائس لهؤلاء الأهالي [1]. وكان الإنتاج الزراعي جيدا إلى غاية عام 1864 حيث موّن إنتاج الجزائر من الحبوب السوق الفرنسية بما مجموعه 29 مليون طن [2]. ومنذ بداية عام 1866 عرفت الجزائر بداية فترة الجفاف، وكان على الأهالي تحمّل سنتين من السنوات العجاف، وقد أرجعت بعض الكتابات الفرنسية أسباب تدهور الإنتاج الفلاحي لثورة 1864 بالجنوب الوهراني، وهي ثورة أولاد سيدي الشيخ، متناسية أعمال الحرق والتخريب التي كان يقوم بها الجيش الفرنسي عقب كل ثورة [3].

وفي ورقة مخطوطة للشيخ الموهوب أولحبيب [4] وردت أخبار الجفاف كما يلي:" خرج القحط في عام 1283هـ/1866 م من الشتاء إلى الصيف لم تنزل مطرة من السماء، ولما غابت منفعة المطر نزل وأدرك أهل الجبال وخصبوا غاية الخصب، ومن ثم انقطع ولم ينزل حتى دخل الشتاء وهب الخريف بكثرة الحرارة، حتى كادت ألا تبقى ورقة بشجرة إلا وسقطت.." [5].

وقد ضرب جفاف كبير مقاطعة وهران في سنة 1866 وصارت القبائل العربية في شدة الضيق، وصارت البلاد في حالة مجاعة حقيقية، وفي خريف 1866 نزلت بعض الأمطار،

وكان الشتاء جافا، وفي الربيع تكلّست الأرض من شدة الجفاف، وجفت سنابل القمح قبل أن يتشكل حبّها، وفي الكثير من المناطق لم تُعط الأرض حتى بذورها، وفي نفس الوقت جفّت المنابع، وماتت الأنعام لما فقدت العشب، وحتى ماء الشرب. وكان موسم الحصاد ينطلق بالجزائر في ماي وجوان، وقد سجل محصول متوسط في عام 1865 وصار ذلك المحصول ضعيفا عام 1866 لينعدم تقريبا عام 1867 [6].

وخلال سنتي 1866-1867 انتشرت عدوى الوباء وصاحبته المجاعة والطاعون والجدري والكوليرا [7] كما اكتسحت أفواج الجراد البلاد والتهمت الحقول الزراعية، وكتب الشيخ محمد القاضي الصدوقي المسيسني" 1825-1887" في رسالته المخطوطة عن الأوبئة والجوائح بزواوة [8] يقول: "...وفي أول عام 1283هـ/1866م ظهر الجراد في بعض الجهات فقط، واجتمع الناس على قتله بأمر من الحكام والقياد، فلما دنا وقت الحرث روت الأرض بالمطر الغزير، وشرع الناس في الحرث، وأكثروا منه لظنهم صلاح العام، فمن ذلك الوقت رُفع المطر، ويبست الأرض، وصار الناس يدعون الله ويتضرعون إليه لإنزال الغيث، وما زال الناس يخرجون للاستسقاء، ويخرجون الطعام، وهلك الزرع، تطوف الأغنام في الصحراء ولا تجد ما ترعى، وباع الناس مواشيهم بثمن بخس..." [9].

وبدأ الطعام يشحّ وتعرّض الناس لضائقة كبيرة، وتفاقمت الأزمة بعد شح الأمطار سنوات 1867 و1868، وارتفعت نتيجة لذلك أسعار المواد الغذائية بشكل مذهل لدرجة أن سعر الصاع من القمح ارتفع إلى مائة فرنك بعد أن كان يساوي ستة وعشرين فرنكا قبل الأزمة [10]. وتطرّق المسيسني لظاهرة الغلاء فقال:" وفي عام 1284هـ/1867م ثار النقع والغبار في الأسواق، ونزل الطاعون وانتشر في البلاد مغربا ومشرقا، فقلّ من سلم من القرى والأعراش واشتد الغلاء بعد ذلك على الخلائق، وانقطع الحرث في تلك السنة على كثير من الناس لعدم الزريعة..." [11]. وخلال سنتي 1866-1867 انتشرت عدوى الوباء وصاحبته المجاعة والطاعون والجدري والكوليرا [12] كما اكتسحت أفواج الجراد البلاد والتهمت الحقول الزراعية، وكتب الشيخ محمد القاضي الصدوقي المسيسني" 1825-1887" في رسالته المخطوطة عن الأوبئة والجوائح بزواوة.

ويدعم الشيخ اولحبيب رواية المسيسني بقوله: "ثم بين العام الثالث والثمانين والعام الرابع والثمانين خرج الغلاء الفاحش الذي لم يمضيه أحد من المعاركين للدهور والأزمنة وبلغ الجهد من الناس حتى صاروا يموتون من شدة الجوع الذي لحق بهم وزالت الحياء والحشمة من الناس ومن رأى صهره وحبيبه أعرض عن وجهه العين فيه ولم يبال إلا القليل النادر هاهم يضيعون واشتد الغلاء على الناس حتى فر الرجل من أولاده وزوجته وهاجر وطنه ويطلبون الخدمة على الأغنياء في قوتهم وعسر المعيشة، وحاصله بلغت قيمة صاع الفرانصيص قمحا خمسون ريالا بسيطة نقدا وبلغ الشعير شطره، وصاع البلوط عشرة أريلة وصاع البشنة باثنا عشر ريالا بسيطة، وصاع الفول بستة عشر بل بثمانية عشر ريالا والصاع الافرنصوي فيه عشرون نصفية بنصفية سي محمد بن الحبيب وتعطي في القلبة اثنان ونصف والصاع فيه ثمان قلبات ..." [13].

وفي منطقة قسنطينة عرفت الأوضاع تدهورا كبيرا خصوصا عامي 1866-1867 عبر عنها العنتري في كتابه مجاعات قسنطينة بقوله: "واجتمعت على الخلائق حينئذ ثلاث مصائب عظام فالأول منها ضياع الزرع والثانية موت المواشي التي غالبا معيشة الناس منها والثالثة كثرة الموت بسبب الوباء الذي نزل في ذلك الوقت ... " [14].

2- موقف السلطات الفرنسية والأعيان من الأزمة الغذائية

ادّعت السلطات الفرنسية إنها قدمت يد العون للمنكوبين من الأهالي ولكننا سجلنا ومن خلال بعض التقارير الفرنسية الرسمية قلة المساعدات الرسمية للمنكوبين، ففي سطيف مثلا كلف إصلاح الساعة التي كانت موجودة فوق الكنيسة حوالي 400 فرنك [15]. في حين أن المساعدات التي وجهت للمنكوبين لم تتعد 2000 فرنك [16] وألقت اللوم على القياد الذي لم يعلموها بالوضع البائس الذي آل إليه الأهالي ولم يتخذوا الإجراءات الضرورية لمجابهة الأزمة [17]. وكان موقف بعض الأثرياء الفرنسيين أكثر إنسانية من موقف السلطات الرسمية فقد قدم الفرنسي شارل كوفيي مبلغ يقارب 4000 فرنك فرنسي لإغاثة المنكوبين في المقاطعات الثلاث للجزائر [18]. وزيادة في الهروب من تحمّل المسؤولية، أصدرت السلطات الاستعمارية تعليماتها للأعيان لمساعدة المنكوبين، وتهافت الأعيان لتقديم

المساعدة، ليس تضامنا إنسانيا مع بني جلدتهم وإنما رضوخا لأوامر الإدارة الفرنسية وإظهار ولائهم لها.

وقد كتب أحمد ولد قادي أحد كبار اعيان وهران يصف آفة المجاعة التي حدثت سنة 1867 بقوله: "مسغبة مدهشة لم يشاهد مثلها في البلاد وآل الأمر إلى أن أكل الناس بعضهم بعضا، وحلّ برعيتي ما حل من الضرر الفادح، فشمرت عن ساق الجد، وقلت الواجب علي أن أدرك الرعية وألتفت إليها لأنها بمثابة العيال ولها حق علينا ... فأعطيت للمضطرين خمسين ألف فرنك على وجه القرض قرضا حسنا وقمت بمائة وخمسين نفسا في فرندة " وتحدث ولد قادي عن أعماله في مساعدة المنكوبين، وثناء الفرنسيين عليه في ذلك، ورسالة الحاكم العام الجنرال ماكماهون له [19]. وفي قسنطينة أبدى الشيخ محمد المكي بن باديس تضامنه مع الأهالي على اعتبار أسرة ابن باديس من الأسر الثرية في المدينة، وفتح أبوابه للمساعدات المادية والعينية وفتح مطامير حبوبه أمامهم وأنفق عليهم أمواله فأنقذ الجوعى، وتكفل بعلاج المرضى [20].

وفي سنة 1869 تشكلّت لجنة تحقيق لدراسة أسباب المجاعة، وأجابها المكي بن باديس مع حسن بن بريهمات وأحمد ولد قادي فقالوا:" ..نعم كان في السالف كثير من الفلاحين يكون عندهم الفاضل في الزرع عن قدر كفايتهم فيحفظونه في المطامير ويخرجونه وقت المسغبة ليدفعوا المضرة، ولما حل بهم غلو السعر في كراء الأرض الدومينية وغيرها من الزيادة في المغرم، وصارت الحاجة تدعوهم إلى قرض الدراهم بالفائدة المضرة كستين في المائة ونحو ذلك ممن انتصب لذلك ولم يرحم خلق الله، كما تدعوهم الحاجة إلى بيع الزرع والصوف قبل أوانها بأقل من نصف القيمة فصار الزرع الذي يحصدونه في الصيف يخرج كله من أيديهم في الشأن المذكور، ولم يبق بأيديهم فاضل يدخرونه" [21]. كما أظهر زعيم الطريقة الرحمانية الشيخ الحداد تعاطفه مع المنكوبين حيث" زاد على ما كان منه من الإطعام في الأعوام الماضية، وقام بذلك أتم قيام ... وإنه في النهار يفرق الخير على المستحقين، ولا

يزال الطعام قائما في بيته إلى وقت العشاء، وفي الليل يخرج قصعا من الكسكس على قدر عشرين أو أكثر من ذلك، وكذلك الفقيه المدقق المدرس الشيخ يحي أو حمودي قام بأمر المحتاجين أتم قيام ..." [22].

3- غذاء الأزمة

أثّرت مجاعات الستينات على النمط الغذائي للأهالي الجزائريين -المتدني أصلا- وفيما عدا بعض الأسر الثرية القليلة التي لم تتضرر كثيرا من هذه الأزمة بفضل سياسة الادخار في المطامير الكبيرة التي كانت تتّبعها، فإن غالبية الأهالي قد تدهور نظامهم الغذائي. وسجل الدكتور فيتال في جانفي 1867 إن أهالي مقاطعة قسنطينة لم يعودوا يتناولون سوى كسرة شعير بسيطة وقليل من الماء النقي الذي عزّ وجوده في ذلك الزمن.

وارتفعت أسعار المواد الغذائية بشكل مذهل فبيع صاع القمح بمائة فرنك وبيع الشعير بستة وعشرين فرنكا للقنطار ثم ارتفع الطلب عليه فارتفع إلى أن وصل إلى خمسة وأربعين فرنكا للقنطار وهو ما لم يبلغه في أي وقت مضى. وتعرضت الثروة الحيوانية للأمراض المختلفة الناجمة عن قلة العشب وقلة الماء فهلك الكثير منها، وشكلت جثثهم طعاما للكثير من المنكوبين الذين لم يجدوا بدا من تناولها في ظل حالة الفقر والعجز الكامل التي وصلوا اليها.

وفي مثل هذه الظروف المطبوعة باليأس بدأت تظهر في المجتمع سلوكات وأنماط غذائية جماعية، تحولت فيها ظاهرة استهلاك أعشاب البراري من حالة اختيارية قبل الأزمة إلى حالة اضطرارية أثنائها [23]. وتدهور النمط الغذائي تدريجيا حتى صار الناس يأكلون الحشائش المختلفة كالخباز والحراشف البرية وبعض جذور النباتات والدرنات البرية التي صارت الغذاء الرئيسي لهؤلاء البؤساء. ولم يعد الكثير من هؤلاء سوى صورة لأشباح وجلدا على عظم كما وصفتهم المصادر الفرنسية ولا غذاء لهم سوى عشب الحقول وجذور النخيل القزمية والاشواك والتاغودة والفطريات وسجلت حالات تسمم كثيرة نتيجة تناول الأهالي

للأعشاب الضارة. وفي 25 جوان 1867 لاحظ الدكتور فيتال إن حالة البؤس مستمرة في التصاعد والأهالي يموتون جوعا ووجدت جماعات من النمامشة ترعى في الحقول عارية مثل الحيوانات البائسة [24].

وقد لجا بعض الأهالي لتناول الحشرات وخصوصا الجراد الذي هجمت أفواج كبيرة منه على المحاصيل الزراعية، وذكر الأب بورزي أن عددا من الأهالي كانوا يتاجرون في الجراد لبيعه لمستهلكيه الذين يقومون بتجفيفه وطحنه لصناعة نوع من الخبز [25]. وأشار الشقراني إلى الحالة البائسة التي وصل إليها أهالي الناحية الغربية بقوله: "... وأكلوا خشاش الأرض كاليبوش والسلاحف والضفادع والسراطين، حتى أنه لم يبق خشاش على وجه الأرض، وأكلوا الكلاب وميتة الدواب، وبلغنا منهم من أكل ميتة الآدمي [26]. وهي نفس الملاحظة التي سجلها العنتري عن مقاطعة قسنطينة حيث قال:" ومن نتائجها أن أكل الناس الحشيش، وصاروا يقتاتون ما لا يباح اقتياته، فتراهم يزدحمون على الوصول إلى هر ودم ميتة" [27].

4- تداعيات الأزمة الغذائية

أدت الأزمة الغذائية إلى تفرق كثير من الأسر بحثا عن الطعام فتشتت العائلات الجزائرية، وصار الأطفال اليتامى هدفا للمبشرين، وكانت جثث الموتى تُجمع كل يوم، ففي معسكر مثلا وفي 03 ديسمبر 1867 تم انتشال جثث عشرة أشخاص، وفي اليوم الموالي انتشلت 14 جثة، وفي اليوم الثالث 23 جثة، وقدّمت التقارير الرسمية رقم 2540 شخص هلك من الجوع في معسكر من أكتوبر 1867 إلى ماي 1868 [28].

وفي غليزان هلك 1353 شخص في نفس الفترة، وفي مستغانم هلك 1853 شخص وبلغ إجمالي الأهالي الذين هلكوا في المجاعات حسب الإحصاءات الفرنسية 128812 في المقاطعات الثلاث [29]. وهذا الرقم بعيد كل البعد عن الرقم الحقيقي الذي كانت الإدارة الفرنسية تخشى التصريح به وهو أكثر من 300 ألف شخص [30].

المنارة للاستشارات

وأشار القاضي المسيسني إلى ظاهرة انتشار الموت في كل ناحية من القطر نتيجة هذه المجاعات والأوبئة فقال:".. وكثر الموت في الخلائق في الأزقة والطرق، ومنهم من دفن، ومنهم من لم يدفن وأكلته الذئاب والوحوش، ولم تسلم قرية من القرى من خطر الموت هذه ستون وهذه أربعون..." [31].

خاتمة:

وفي ختام هذا المقال نخلص أن وقع أزمة الجوع في الجزائر خلال ستينات القرن التاسع عشر كان قاسيا جدا على الأهالي وذلك بسبب تردي أحوالهم المعيشية قبل الأزمة وعدم قدرتهم على مجابهة الأوضاع الجديدة، حيث تركتهم الإدارة الكولونيالية ليواجهوا مصيرا مجهولا دون أن تعمل بجد على تخليصهم من هذه الأزمة التي عصفت بالكثير منهم بعد أن تدهور نظامهم الغذائي وصاروا عرضة للأمراض الفتاكة.

وقد تفاعلت الاسطوغرافيا التقليدية مع هذه الأزمة حيث قيد بعض الفقهاء والعلماء كتابات دقيقة عنها رغم اختصارها، حملت في طياتها إشارات بالغة الأهمية قدمت لنا جوانب مغيبة لم تذكرها المصادر الفرنسية قفي تلك الفترة الحرجة.

الهوامش:

1- محمد الطيبي: الجزائر عشية الغزو الاحتلالي، دراسة في الذهنيات والبنيات والمآلات، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر:2009، ص 194.

2- Société d'agriculture de Constantine :Rapport fait au nom de la commission chargée d'examiner le projet de loi sur l'impôt foncier en Algérie,Constantine imprimerir L.Marle 1875, p 3.

3- Ch.Du Buzet : Le gouvernement militaire de l'Algerie, in revue moderne, T 49 , année 1868,Paris, Lacrois,Verboeckhven éditeurs ,p 296 .

4- هو الشيخ محمد الموهوب أولحبيب بن البشير بن الطيب بن علي بن الزروق بن أحمد بن الحبيب بن يوسف، وقد حصلنا على نسخة مخطوطة من رسالته حول مجاعات الستينات وتأثيراتها على الأهالي خصوصا منطقة بني ورثيلان شمال سطيف.

5- محمد الموهوب أولحبيب: المصدر نفسه.

6- Ch.Du Buzet : Opcit,p 296.

7- كمال كاتب: أوروبيون أهالي ويهود بالجزائر 1830-1962 تمثيل وحقائق السكان، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 99.

8- عثر عليها محمد الشريف بن الشيخ ونشر قسما منها في كتابه: أصداء من الماضي، منشورات الحبر، الجزائر، ط1، 2009، ص 258.

9- المرجع نفسه.

10- يحي بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى، عين مليلة 2009، ص 483-484.

11- محمد الشريف بن الشيخ: المرجع السابق، ص 258.

12- كمال كاتب: أوروبيون أهالي ويهود بالجزائر 1830-1962 تمثيل وحقائق السكان، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 99.

13- محمد الموهوب أولحبيب: المصدر السابق.

14- محمد الصالح العنتري: مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر:1974، ص 56.

15- Département de Constantine: Publication des délibérations du conseil municipal de Sétif pendant les année 1867-1868,Sétif, Imprimerie et librairie de A.Mercier 1869, p 40.

16- Département de Constantine : Publication des délibérations du conseil municipal de Sétif, Opcit , p 40.

17- La famine en Algérie et les discours officiels. Erreurs et contradictions. (12 Avril 1868). 2è édition Constantine librairir Marle, 1868, p 16.

18- Cuvier, Charles : Compte rendu des dons reçus en faveur des victimes de la famine en Algérie, Strasbourg, G.Silbermann, 1868 ,p 01.

19- أحمد ولد قادي : الدوابر والزمالة، مطبعة هانتز، وهران 1883 ، ص71-72.

20- Gouvion, M et E : Opcit, p 62 .

21- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 489.

22- محمد الشريف بن الشيخ: المرجع السابق، **ص** 262.

23- محمد أستيتو: أقوات وتغذية في تاريخ المغرب الحديث، مجلة أمل ع 17، السنة السادسة، 1999، ص 38.

24- Annir Rey-Goldzeiguer : Le royaume arabe, la politique algerienne de Napoleon III 1861-1870, Alger,S.N.E.D 1977 ,p 445.

25- L''abbé Burzet :Histoire des désastres de l'Algérie, 1866-1867-1868, sauterelles, tremblement de terre, choléra, famine, impr de E. Garaudel (Alger)-1869 ,p 28.

26- لشقراني: القول الأوسط فيمن حل بالمغرب الأوسط، تح: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الاسلامي، بيروت: 1991، ص 45.

27- محمد الصالح العنتري: المصدر السابق، ص 57.

28- L''abbé Burzet :Opcit, p 86-87.

29- Iid,p 87-88.

30- يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 487.

31- محمد الشريف بن الشيخ: المرجع السابق، ص 262.